بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 12 أبريل 2018

الجهاد في الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر

مفهوم الجهاد في فكر روّاد النهضة

حمّادي ذويب
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018
All rights reserved © 2018

الجهاد في الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر

مفهوم الجهاد في فكر روّاد النهضة[1]

1- ألقيت هذه الورقة في ندوة: "الجهاد في الإسلام: معترك التأويل والتوظيف"، المنعقدة بتونس: 01 - 02 ماي/ مايو 2017، تنسيق: د. بسام الجمل ود. أنس الطريقي. مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.

الملخّص:

يتمثل هاجسنا الأساسي في هذا البحث في محاولة النظر في مفهوم الجهاد في فكر روَّاد عصر النهضة، فقد شهد هذا المفهوم منذ العصر الحديث نقلة نوعيَّة يجدر التوقف عندها. فقد أخرج الجهاد من أبعاده الفقهيَّة واستخدم بدلالته العامَّة التي لا تقتصر على القتال وتركّز أساساً على جهاد الدفاع عن النفس وعن الدين وعن الوطن والأمَّة. نعتزم في هذا الصدد التركيز بالأساس على مدوّنة الشيخ رشيد رضا متمثلة في تفسير المنار ومجلة المنار مع الانفتاح على مدوّنة الشيخ محمَّد عبده والشيخ محمَّد الطاهر بن عاشور وعبد العزيز الثعالبي، لنرى مدى انسجام رؤاهم ومواقفهم من الجهاد ومدى اتصال هذه المواقف بموقفهم النظري من الآخر غير المسلم، باعتبار أنَّ هذا الموقف هو القاعدة الأساسيَّة التي نهض عليها تغيُّر الموقف من الجهاد.

مقدّمة

يعتبر مفهوم الجهاد من أكثر المفاهيم الخلافيَّة في الفكر الإسلامي الحديث، بالإضافة إلى أنَّه من أكثر المفاهيم التي شهدت ثراء دلاليًّا لا نظير له في الحقب السابقة، لذلك رمنا التوقف عند الفترة التأسيسيَّة لهذا الفكر في التاريخ الحديث، لنلقي بعض الأضواء على عدد من أهمّ خصائص هذا المفهوم، لكنَّنا آثرنا الانطلاق من نموذج من نماذج تطوُّر هذا المفهوم بعد مرحلة روَّاد النهضة مباشرة أو بالتزامن معها، وهو نموذج حسن البنا.

صناعة الموت في فكر حسن البنّا

ذكر حسن البنّا في خاتمة بحثه في «رسالة الجهاد»: أنَّ الأمَّة التي تحسن صناعة الموت، وتعرف كيف تموت الموتة الشريفة يهب الله لها الحياة العزيزة في الدّنيا والنعيم الخالد في الآخرة. وما الوهم الذي أذلّنا إلا حبّ الدّنيا وكراهية الموت. فأعدّوا أنفسكم لعمل عظيم واحرصوا على الموت توهب لكم الحياة».[1]

الموت وفق هذا الرّأي ليس قدراً يعرض للإنسان بفعل إرادة أقوى منه تسلّط عليه هذا المصير المحتوم، وإنَّما هو صناعة، أي حرفة يتعلّمها الإنسان ويجيد قواعدها وأحكامها. وعلى هذا الأساس يدعو البنّا إلى ما قد يبدو غريباً لغير المسلم، وهو تعمُّد الإقبال على الموت والاستعداد له والعمل على تحقيقه، لكن ما الذي يبرّر موقف حسن البنّا هذا؟

نلفي الجواب على هذا التساؤل في حكم الجهاد، فهو فريضة على كلّ مسلم «لازمة حازمة لا مناص منها ولا مفرّ معها»[2]، ولا ريب في أنَّ هذا الوجوب القطعي حسب منطوق عبارة حسن البنّا ليس من دون أسانيد ينهض عليها، لذلك عمد إلى عرض جملة من الحجج الدينيَّة التي تشرعن هذا الوجوب، وفي مقدّمتها الآيات القرآنيَّة، واستهلّ هذا العرض بالآية: «كتب عليكم القتال وهو كُره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم»، (البقرة 2: 216) ومعنى كتب حسب البنّا: فرض، لكن هل لها دلالات أخرى؟

يقول القرطبي: «وذكر المهدوي وغيره عن الثوري أنَّه قال: الجهاد تطوُّع. قال ابن عطية: وهذه العبارة عندي إنَّما هي على سؤال سائل وقد قيم بالجهاد فقيل له ذلك تطوُّع».[3]

1- حسن البنّا، مجموعة رسائل الشهيد حسن البنّا، القاهرة، المكتبة التوفيقيَّة (د.ت.)، ص 300.

2- المصدر نفسه، ص 283.

3- القرطبي، تفسيره، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت، المجلد2، الجزء 3، ص 38.

وقد حكى ابن رشد في «بداية المجتهد» إجماع العلماء على أنَّه فرض كفاية، إلا عبد الله بن الحسن (عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب) فإنَّه قال إنَّه تطوُّع.[4]

ويفسّر ابن عربي القتال بأنَّه «قتال النفس والشيطان».[5] وتبرز هذه التأويلات المختلفة للآية أنَّ حسن البنّا اختار تأويلاً منها لا يوجد إجماع عليه بين العلماء القدامى.

ولم يكتفِ البنّا بعرض بعض الآيات التي يفهم منها فرضيَّة الجهاد، بل عضدها بوجود سور كاملة تحثّ على القتال وتبيّن أحكامه على غرار سورة الأنفال وسورة التوبة وسورة القتال وسورة الفتح.

لا يستند البنّا إلى النصوص القرآنيَّة فحسب لشرعنة فرضيَّة الجهاد، بل ينفتح على الأحاديث النبويَّة كذلك، معتمداً في ذلك آليَّة التكثيف العددي، فقد بلغ عدد الأحاديث التي ساقها واحداً وثلاثين حديثاً، منها «ما رواه أبو هريرة عن الرسول أنَّه قال: من مات ولم يغزُ ولم يحدّث به نفسه مات على شعبة من النّفاق».[6]

يعوّل البنّا في مستوى ثالث على الإجماع لشرعنة وجوب الجهاد، فيستعرض عدداً من آراء الفقهاء القدامى في هذا الموضوع؛ ليستخلص منها إجماع أهل العلم قديماً وحديثاً على أنَّ الجهاد فرض كفاية على الأمَّة الإسلامية لنشر الدّعوة، وفرض عين لدفع هجوم الكفّار عليها.

ولئن كان البنّا لا يتوقّف صراحة لبيان مفهوم الجهاد في تصوُّره، فإنَّنا يمكن أن نستنتجه من خلال عدَّة مؤشّرات نصيَّة واردة في رسالته، منها تواتر مصطلح القتال لديه وتنويهه به واعتماده مرادفاً لمصطلح الجهاد. ومن ذلك اختيار النصوص التي تتضمَّن التأكيد على أنَّ الجهاد بمعنى استخدام القوَّة على غرار حديث عبد الله بن أبي أوفى أنَّ الرسول قال: «اعلموا أنَّ الجنة تحت ظلال السّيوف».[7] ومنها ذكره في صدارة استعراضه مواقف الفقهاء في موضوع حكم الجهاد مفهوماً يؤكّد على القتل والقتال: «وقال صاحب «مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر» مقرّراً أحكام الجهاد في مذهب الأحناف: «الجهاد في اللغة بذل ما في الوسع من القول والفعل. وفي الشريعة قتل الكفّار ونحوه من ضربهم ونهب أموالهم وهدم معابدهم وكسر أصنامهم. والمراد الاجتهاد في تقوية الدّين بنحو قتال الحربيّين والذمّيين إذا انقضوا والمرتدّين الذين هم أخبث الكفّار للنقض بعد الإقرار والباغين».[8]

4- ابن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تحقيق خالد العطار، بيروت، دار الفكر، 1998، 278/1.

5- ابن عربي، تفسير ابن عربي، بيروت، دار صادر، 2002، 66/1.

6- رواه مسلم وأبو داود.

7- رواه الشيخان وأبو داود.

8- البنّا، المصدر المذكور، ص 294.

وما يؤكّد أنّ مفهوم الجهاد لدى حسن البنّا هو المفهوم القتالي العنيف أنَّه لا يعترف بأنَّ الجهاد الأكبر هو جهاد النفس وأنَّ الجهاد الأصغر هو قتال العدو. فهذا الرّأي يقوم في نظره على حديث غير صحيح مشهور على الألسنة، وإنَّما هو من كلام إبراهيم بن عبلة. وقد رواه البيهقي بسند ضعيف عن جابر. والغاية من هذا الخبر في تقديره صرف الناس عن أهميَّة القتال والاستعداد له ونيّة الجهاد والأخذ في سبيله.

ولئن نفى البنّا أن يكون جهاد القلب أو جهاد النفس في منزلة الصّدارة قبل الجهاد بمعنى قتال الكفار، فإنَّه أوضح أيضاً أنَّ من أنواع الجهاد نوعاً ملحقاً به هو مقاومة السلطان الظّالم اعتماداً على حديث يقول: «إنَّ من أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر». وهذا النوع من الجهاد لا يرتقي إلى مرتبة قتال الكفار ولا تترتّب عليه الشهادة الكبرى؛ أي إنَّ جزاءه لا يتساوى مع ثواب المجاهدين الذين يقتلون أو يُقتلون في سبيل الله، وفق البنّا.

والغريب في هذا السّياق سكوت البنّا عن مفهوم الجهاد غير القتالي وخاصَّة ما تعلّق منه بالجهاد بالأموال، على الرّغم من إيراده الآية التي تنصّ على ذلك وتضع الجهاد بالمال في الصّدارة قبل الجهاد بالنفس وهي: «لكن الرّسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون». (التوبة: 88)

وهذه الغرابة قد تتبدَّد إذا علمنا أنَّ خلفية موقف البنّا ليست تقليد مواقف السّلف والخضوع لسلطة النصوص بقدر ما هي مواجهة واقع المسلمين في عصره، وهو واقع يتّسم بهيمنة الاستعمار على أرض الإسلام وعجز المسلمين عن ممارسة عباداتهم ونشر دينهم. يقول في هذا السياق: «والمسلمون الآن كما تعلم مستذلّون لغيرهم محكومون بالكفّار قد ديست أرضهم وانتهكت حرماتهم، وتحكّم في شؤونهم خصومهم وتعطّلت شعائر دينهم في ديارهم فضلاً عن عجزهم عن نشر دعوتهم، فوجب وجوباً عينيّاً لا مناص منه أن يتجهّز كلّ مسلم وأن ينطوي على نيّة الجهاد وإعداد العدّة له حتى تحين الفرصة ويقضي الله أمراً كان مفعولاً».[9]

هكذا اقتضت المصلحة العامَّة للمسلمين والواقع المخصوص الذي أضحوا يعيشونه أن يشدّد البنّا على المفهوم القتالي العنيف للجهاد، وأن يضع المفهوم السلمي له في الظلّ وفي الملحق، كما اقتضى هذا الظّرف الجديد أن يتحوّل حكم الجهاد من فرض الكفاية إلى فرض العين. إلا أنَّ هذا التطوّر الذي فرضته الأوضاع الجديدة للمسلمين لا يعني تغيراً في الغاية من الجهاد وفي الأخلاقيات التي تحكمها في نظر حسن البنّا، فعلى الصعيد الأوَّل يقرّ مؤسّس الإخوان المسلمين أنَّ مفهوم الجهاد المقصود ليس الجهاد الهجومي وإنَّما هو

9- المصدر نفسه، ص 296.

الجهاد الدّفاعي. يقول: «فرض الله الجهاد على المسلمين لا أداة عدوان ولا وسيلة للمطامع الشخصيَّة ولكن حماية للدّعوة وضماناً للسلم».[10]

ويعضد هذا الرأي بترافق الدّعوة إلى القتال في القرآن بالدّعوة إلى السلم والإشادة بالسلام. وهو ما تجلّى من خلال الآية: «وإن جنحوا للسّلم فاجنح لها وتوكّل على الله». (الأنفال 61)

والظّاهر أنَّ مفهوم الجهاد الدّفاعي يتناقض مع ما ذكره البنّا في أوَّل رسالته عن الجهاد أثناء الحديث عن حكمه، فقد صرَّح أنَّه فرض كفاية على الأمَّة الإسلاميَّة لنشر الدّعوة وفرض عين لدفع هجوم الكفّار عليها، وإذن فإنَّ المفهومين حاضران عنده، والمفهوم الجهادي لم ينقطع وإنَّما هو واجب على فريق من المسلمين إن قاموا به سقط عن البقيَّة.

وهذا التناقض يفسَّر في رأينا بتأرجح البنّا بين ما هو موروث من نصوص ومواقف دينيَّة وفقهيَّة وما يعايشه من أوضاع وآراء حديثة، بالإضافة إلى أنَّه يكتب كتابة دفاعيَّة وجداليَّة في الآن نفسه ليدرأ عن الإسلام والمسلمين ما يرميهم به خصومهم من تهم على غرار اعتبار فريق من المستشرقين أنَّ حروب المسلمين كانت لغاية التوسّع والغنيمة. يردّ البنّا عليهم قائلاً: «وأنت إذا قرأت وقائع الصحابة ومسالكهم في البلاد التي فتحوها رأيت مبلغ عزوفهم عن المطامع والأهواء وانصرافهم لغايتهم الإسلاميَّة الأصليَّة، وهي إرشاد الخلق إلى الحقّ حتى تكون كلمة الله هي العليا، ورأيت مبلغ الخطأ في اتهامهم - رضوان الله عليهم - بأنَّهم إنَّما كانوا يريدون الغلب على الشعوب والاستبداد بالأمم والحصول على الأرزاق».[11]

وهذه الغاية الجداليَّة الدّفاعيَّة هي التي جعلت البنّا أيضاً يبرز أنَّ الجهاد بمفهومه الإسلامي يقترن بأخلاق ومظاهر سلوكيَّة إيجابيَّة على رأسها الرَّحمة، فهم حين يقاتلون لا يعتدون ولا يفجرون ولا يمثّلون ولا يسرقون ولا ينتهبون الأموال ولا ينتهكون الحرمات، وقد ورد في أحكام الجهاد وأخلاقياته النهي عن قتل النساء والصبيان والشيوخ والإجهاز على الجرحى وإهابة الرهبان والمنعزلين ومن لا يقاتل من الآمنين. ويعتبر البنا على هذا الأساس أنَّ القتال أو الجهاد الإسلامي أرقى من القتال المتمدّن، «فأين هذه الرحمة من غارات المتمدّنين الخانقة وفظائعنم الشنيعة؟ وأين قانونهم الدّولي من هذا العدل الرباني الشامل؟»[12]

لكن هل كان مفهوم البنا للجهاد وريثاً شرعيَّاً لمفهومه اللغوي والاصطلاحي عند روَّاد النهضة الإسلاميَّة؟

10- المصدر نفسه، ص 297.

11- المصدر نفسه، ص 298.

12- المصدر نفسه، ص 299.

المفهوم اللغوي للجهاد

يسمح لنا الاطلاع على أقدم معجم للغة العربيَّة، وهو «كتاب العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170)، بأن نستنتج وجود فعلين تفرَّع عنهما مصطلح الجهاد: فأمَّا الأوَّل فهو فعل ثلاثي «جهد»، وهو يحيل على فعل فردي لا يتصل بالجماعة وينهض على بلوغ الفرد غاية الأمر الذي لا يألو عن الجهد فيه. وهكذا فالفعل يدلّ على بلوغ الفرد أعلى درجات المشقة في فعل من الأفعال ولا صلة له بالقتال. أمَّا الفعل الثاني فهو جاهد، وهنا يماهي الخليل بين الجهاد والقتال قائلاً: «وجاهدت العدو مجاهدة هو قتالك إياه».[13]

والملاحظ أنَّ الفعل الثلاثي المفتوح «جهد» لم يقترن في غير كتاب «العين» من المعاجم القديمة ـ في حدود اطلاعنا ـ بمعنى القتال، بل كان يدلّ أساساً على الطاقة والمشقة، وهو ما يتأكّد من خلال تعريف ابن فارس لـ«جهد» بأنَّ أصله المشقة. ويعضد هذا الرأي بيت شعري لرؤبة يقول فيه على بحر الرجز:

أشكو إليه شدَّة المعيش[14]

وجهد أعوام نتفن ريشي

نتف الحبارى عن قرار هيش

أمَّا جهد بكسر الهاء، فقد عثرنا على معجم وحيد هو المعجم المحيط للفيروزآبادي يجعله بمعنى القتال مع العدوّ كالمجاهدة.[15]

ولئن غاب مصطلح الجهاد عن عدَّة معاجم قديمة، فإنَّه حضر في بعضها على غرار «مختار الصحاح» للرازي (ت666هـ) الذي يذكر: «جاهد في سبيل الله مجاهدة وجهاداً»[16]، ويضيف إلى ذلك أنَّ الاجتهاد والتجاهد بذل الوسع والمجهود، والمستخلص من هذا سكوته عن معنى القتال.

والظاهر أنَّ القراءة التاريخيَّة التطوريَّة لمفهوم الجهاد لغة واصطلاحاً لم تحصل إلا في مصادر غير بعيدة عن عصرنا، منها قراءة التهانوي (ت. بعد 1158هـ / بعد 1745م)، فقد اعتبر أنَّ المفهوم اللغوي للجهاد أعمّ من مفهومه الشرعي، فلئن كان في اللغة بمعنى بذل ما في الوسع من القول والفعل، فإنَّه في

13- الخليل بن أحمد، كتاب العين مرتباً على حروف المعجم، ترتيب وتحقيق عبد الحميد الهنداوي، بيروت، منشورات محمَّد علي بيضون ودار الكتب العلميَّة، 2003، 1/268-269.

14- الزمخشري، أساس البلاغة، ط1، بيروت، دار صادر، 2009، ص 101.

15- الطاهر أحمد الزاوي، ترتيب القاموس المحيط، ط3، تونس ـ ليبيا، الدار العربيَّة للكتاب، 1980، 1/545-546.

16- الرازي، مختار الصحاح، ط1، بيروت، دار الكتاب العربي، 1979، ص 114.

الشريعة يدلّ على قتال الكفار، لكنَّ هذا المفهوم اكتسب دلالة جديدة لدى الصوفيَّة، فهو لديهم بمعنى الجهاد الأصغر، أمَّا الجهاد الأكبر، فهو في تصوُّرهم المجاهدة مع النفس الأمَّارة.[17]

وقد اكتسبت القراءة التاريخيَّة لدى بطرس البستاني بُعداً جديداً في معجمه «قطر المحيط»، فقد ميّز بين مرحلتين زمنيتين من مراحل تطوُّر مفهوم الجهاد، ففي مرحلة ما قبل ظهور الإسلام كانت مجاهدة العدو تعني مقابلته في تحمّل الجهد، لكن بعد الإسلام غلب مفهوم الجهاد على قتال الكفّار ونحوه».[18] هكذا بدأ مفهوم الجهاد خالياً من معنى القتال، إلَّا أنَّه اكتسب في الإطار الإسلامي معنى قتال الكفّار.

ولئن خاض عدد من أعلام عصر النهضة في موضوع غزوات الرسول دون إظهار الاحتراز على تسميتها بالجهاد ودون إنكار الجهاد القتالي الحاصل في التاريخ الإسلامي، فإنّهم سعوا إلى إخراج الجهاد من إطاره الفقهي وأعطوه معنى أعمّ من خلال القول: «إنَّ الجهاد في القرآن والسنّة يستعملان بمعناهما اللغوي».[19]

وبناء على هذا يقيم هؤلاء الأعلام فصلاً واضحاً بين الجهاد والقتال، وهذا الفصل ورد في عبارات صريحة لا غبار عليها، مثلما تجلّى في قول محمَّد عبده في تعريفه للجهاد باعتباره: «احتمال الجهد والمشقّة في مقاومة خصم أو عدوّ فلا يدخل في معناه حرب من لا يحارب وقتل من لا يقاتل إذ لا مشاركة في ذلك».[20] غير أنَّ هذا الموقف لم يكن عليه إجماع بين جميع روَّاد النهضة على غرار الشيخ محمَّد الطاهر بن عاشور، فهو يعتبر أنَّ الصيغة الرباعيَّة للفعل «جاهد» على وزن فاعَل تدلّ على المشاركة، لأنَّ القائم بهذا الفعل يظهر جهده وطاقته لمن يظهر له مثله.[21] لكنّ الجهاد ليس مجرَّد إظهار الجهد، وإنَّما هو الاسم الجامع لمنتهى الطاقة في تصوُّر الشيخ التونسي.

وهذا التصوُّر يخدم نزعته إلى تمجيد الجهاد بمعناه الفقهي القتالي، لذلك تعسف على صيغة المفاعلة في المجاهدة معتبراً أنَّها تفيد المبالغة لكي يماهي بين المشقة والقتال دون ان يقصي مع ذلك معنى المشاركة في هذه الصيغة، حيث ذكر أنَّها قد فسرت بمعنى أن يضمّ الفرد جهده إلى جهد آخر في نصر الدين، مثل المساعدة التي تعني ضمّ الرجل ساعده إلى ساعد آخر للإعانة والقوَّة.[22] وقد سعى بعض الدارسين المعاصرين إلى إبراز أنَّ الجهاد مصدر الفعل الرباعي «جاهد»، وأنَّه خلافاً لما توهَّمه أصحاب المعاجم لا يمكن اعتبار الجهاد مشتقاً من الفعل الثلاثي جهد، بتعلة أنَّ الألف أصليَّة في الفعل الرباعي، لكنَّ محمَّد

17- التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، استانبول، 1984. 197/1.

18- البستاني، قطر المحيط، 1/322.

19- رشيد رضا، تفسير المنار، ط3، مصر، مطبعة المنار 1330 هـ، 15/33 (الآية 143 من آل عمران).

20- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

21- ابن عاشور، التحرير والتنوير، والتنوير، تفسير التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسيَّة للنشر، 1984، 238/6.

22- المصدر نفسه، 2/ 337.

شحرور صاحب هذا الرأي يناقض نفسه بنفسه عندما يبدأ تحليل فكرته، معتبراً أنَّ الجهاد «فعل إنساني واع لا يقوم إلا بطرفين، ويكون الطرف فيه فرداً أو يكون جماعة، حيث يبذل كلّ طرف وسعه في مغالبة صاحبه»[23]، لكنَّه ينتهي إلى أنَّ إسقاط الألف الأصليَّة في الفعل الرباعي يحوّل الجهاد إلى جهد، وإذن فهو ينطلق من اعتبار الجهاد بذل الوسع، ثمَّ يرفض الاعتراف بأنَّه جهد في النهاية.

وخلاصة رأينا في مفهوم الجهاد لغة أنَّه مشتق من الجهد، وهو المشقة، والصيغة الرباعيَّة للفعل جاهد على وزن فاعل تدلّ على المشاركة، لأنَّ القائم بهذا الفعل يظهر جهده وطاقته لمن يظهر له مثله[24]، لكنَّ الجهاد ليس مجرَّد إظهار الجهد، وإنَّما هو الاسم الجامع لمنتهى الطاقة وفق عبارة الشيخ ابن عاشور، وهذا المعنى لا صلة له بالقتال إن اكتفينا بالمعنى اللغوي وحده، لكنَّ هذا المعنى لا يتطوَّر إلا في تفاعل مع المجتمع، لذلك ستتَّسع دلالته عبر العصور.

المفهوم القرآني للجهاد: اتساع الدّلالة وتعدّد التأويلات

يمكن أن نعتبر أنَّ مفهوم الجهاد في القرآن من أهمّ الأدلّة التي تدحض المفهوم الفقهي الذي حاول أن يماهي بين مفهومي الجهاد والقتال. ولئن ذكر مفهوم الجهاد في القرآن في حوالي 34 مناسبة، واعتبره بعض الباحثين مصطلحاً إسلاميًّا خالصاً، فإنَّه ظلَّ محتفظاً في جميع الآيات التي ذكر فيها بأصل معناه المتضمّن لبذل الطّاقة والمشقّة، مع إضافة معنى آخر إلى ذلك عبر الشبكة الدّلالية التي يشكّلها مع المفاهيم القرآنيَّة الأخرى. وبشكل رئيس من خلال العلاقة التي تربط هذا المفهوم بعبارتي «بالله» و«سبيل الله والرسول».[25]

وقد ورد مصطلح الجهاد في عدّة آيات دالاً على معنى محتمل لأكثر من دلالة خالياً من القطع بدلالة وحيدة على غرار دلالة القتال، لذلك اختلف مفسّرو القرآن في تأويل هذا المصطلح اختلافاً جليًّا. من ذلك أنَّ القرطبي نقل ثلاثة تأويلات لعبارة «وجاهدهم به» في الآية: «فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً»، (الفرقان 52) فما هي أداة الجهاد التي تخاطب بها الآية الرسول؟

23- شحرور، تجفيف منابع الإرهاب، ط1، بيروت، مؤسسة الدراسات الفكريَّة المعاصرة، دمشق، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، 2008، ص 55.

24- محمَّد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 6/238.

25- انظر محمود محمَّد أحمد، تطوّر مفهوم الجهاد، دراسة في الفكر الإسلامي المعاصر، ط1، بيروت، الشبكة العربيَّة للأبحاث والنشر، ص 30.

ذكر القرطبي أنَّ ابن عبّاس يقول إنَّها القرآن، أمَّا ابن زيد فهو يقول إنَّها الإسلام، أمَّا الموقف الثالث المنسوب إلى المجهول فيعتبر أنَّ هذه الأداة هي السيف، ويعلّق القرطبي على هذا التأويل معتبراً أنَّه بعيد، لأنَّ السورة مكيَّة نزلت قبل الأمر بالقتال.[26]

ويمكن أن يستثمر هذا التعدُّد التأويلي في الواقع المعاصر لبيان أنَّ الجهاد يمكن أن يكون بغير السّيف، وإنَّما بالكلام المقدَّس بما فيه من هيبة وسلطة روحيَّة كبيرة على النفوس، وبما تشتمل عليه من حقائق وعبر وقيم جامعة تحثّ الإنسان على التدبّر في نفسه وفي الخلق والمخلوقات.

وقد اتّسعت دلالة مفهوم الجهاد في بعض الآيات التي ذكر فيها على غرار الآية: «وجاهدوا في الله حقّ جهاده»، (الحج 78/22) فما هو الجهاد الحقّ الوارد في هذه الآية؟ هل هو البلاء الحسن في ساحة الحرب والقتال؟ لم نجد اتفاقاً على هذا المعنى بين المفسّرين القدامى؛ فابن عبّاس فسَّر عبارة «حقّ جهاده» بكونها الجرأة على قول الحق. يقول «حقّ جهاده لا تخافوا في الله لومة لائم»[27]، أمَّا الضحّاك فإنَّه أوَّلها بمعنى العمل الحقّ لله، وينصُّ التأويل الآخر على استفراغ الجهد في إحياء دين الله وإقامة حقوقه بالحرب وباليد واللسان وردّ النفس عن الهوى والميل. ويذكر الرازي مذهباً آخر في تأويل العبارة القرآنيَّة يفسّرها بأنَّها بمعنى مجاهدة النفس والهوى. ويختار الرازي معنى آخر غير المعاني التي ذكرها، وهو معنى غير قتالي يكتسي طابعاً دينيَّاً تشريعيَّاً، فالجهاد في نظره هو المحافظة على أوامر الشرع ونواهيه، يقول: «والأولى أن يحمل ذلك على كلّ التكاليف، فكلّ ما أمر به ونهى عنه فالمحافظة عليه جهاد».[28]

والواضح أنَّ كلَّ مفسّر يعكس شواغله التي تتركّز على مجال معرفي بعينه، فالمتصوّف عبد الله بن المبارك فسَّر العبارة بمعنى مجاهدة النفس والهوى، والمفسّر الذي يهتمّ بالجوانب الشرعيَّة للقرآن فسَّرها بالتكاليف.

ومن الفقهاء الذين فهموا الآية المذكورة فهماً عامَّاً على معنى غير قتالي النووي في كتابه «رياض الصالحين».[29]

والراجح أنَّ مفهوم الجهاد في المدوّنة التفسيريَّة كان يتّسع ويلين كلّما ابتعدنا عن العصر المبكّر للإسلام، فقد اتسمت هذه الفترة باشتداد الصراع بين المؤمنين بالإسلام وخصومه من المشركين. ويمكن أن نعضد رأينا هذا بمثال الآية: «إنَّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثمَّ لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم

26- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد عبد العليم البردواني، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1964، المجلد 7، الجزء 13، ص 58.

27- الرازي، تفسيره، المجلد 12، الجزء 23، ص 64.

28- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

29- النووي، رياض الصالحين، ط 17، بيروت، مؤسّسة الرسالة، 1409 هـ/1989م، ص 86.

وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون». (الحجرات: 49/15) فقد استغلَّ الطبري هذه الآية ليرسّخ أفضليَّة المؤمنين على الكفّار، وليذكر أنَّ المقصودين بالجهاد هم المشركون.[30]

لكن بعد الطّبري اتسع مجال تأويل العبارة القرآنيَّة فلم يعد المجاهَد بالضرورة المشرك والكافر، وإنّما برز تأويل نفسي ذاتي للمصطلح يجعل هذا المجاهَد منويَّاً في قرارة النفس، وقد يكون المقصود عدوَّاً ماديَّاً أو معنويَّاً غير ملموس وهو الشيطان أو الهوى. وهذا التعدُّد التأويلي يشمل ـفي نظر الزمخشري- فعل جاهد في الآية، فقد يكون بمعنى المبالغة في الجهد، وهو المعنى اللغوي المعروف للفعل، وقد يكون بمعنى المجاهدة بالنفس أي الغزو والقتال، وقد يتناول العبادات بأجمعها.[31]

والملاحظ أنَّ اتساع الدّلالة لا يقتصر على عبارة الجهاد بالنفس، بل يشمل أيضاً الجهاد بالمال، فهو لا يدلّ ضرورة على المال الذي ينفق على القتال، بل يمكن أن يفهم منه الزكاة وكلّ أعمال البرّ.[32]

والملاحظ أنَّه من غير الممكن اعتبار الآيات المكيَّة التي تتضمَّن مصطلح الجهاد دالّة على الجهاد بمعناه القتالي، وهي على التوالي:

- وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما. (لقمان 15/31)

- ثم إنَّ ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثمَّ جاهدوا وصبروا إنَّ ربك من بعدها لغفور رحيم. (النحل 110/16)

- والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا. (العنكبوت 69/29)

- فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً. (الفرقان 52/25)

فهذه الآيات تتطرَّق إلى الجهاد في سبيل الله بمفهومه العام، ولا يمكن حمله على القتال.

ويمكن في المجمل أن نخلص إلى أنَّ تأويل الجهاد بمعنى القتال في جميع الآيات التي ورد فيها ذكره متعذّر بسبب وجود آيات يصعب على الدّارس تخصيص مفهوم الجهاد فيها.[33]

30- الطبري، تفسيره (جامع البيان في تأويل آي القرآن)، ط1، بيروت، دار الكتب العلميَّة، 1992.

31- الزمخشري، الكشاف، شرح وضبط يوسف الحمّادي، القاهرة، مكتبة مصر، 2000، 4/263.

32- يقول الزمخشري: "وبالمجاهدة بالمال نحو ما صنع عثمان في جيش العسرة، وأن يتناول الزكوات وكلّ ما يتعلق بالمال من أعمال البرّ التي يتحامل فيها الرجل على ماله لوجه الله تعالى"، المصدر نفسه، 4/263.

33- انظر محمود محمَّد أحمد، تطوّر مفهوم الجهاد، ص 38.

مفهوم الجهاد من خلال الأحاديث النبويَّة

يجد المطلع على الأحاديث النبويَّة الخاصَّة بالجهاد أنَّ المفهوم الذي يهيمن عليها هو المفهوم القتالي. ويكفي النظر في باب الجهاد في أيّ كتاب من كتب الحديث لاستخلاص هذا الاستنتاج دون حاجة إلى أدلّة وقرائن خاصَّة تصرف مصطلح الجهاد إلى معنى القتال مثلما هو الحال في الآيات القرآنيَّة. ويبدو أنَّ ما يبرّر هذه الظّاهرة حجم القوَّة المعادية الهائلة التي كانت تتصدّى للمسلمين، وهو ما اضطرّ الرّسول وصحبه للّجوء إلى الطّرق القتاليَّة دفاعاً عن الدين الجديد، إلّا أنَّ هذا لا يعني أنَّ الأحاديث النبويَّة لم تتّسع إلى معانٍ أخرى غير المعنى القتالي للجهاد، إذ توجد أحاديث تنصّ على أنَّ أفضل الجهاد حجّ مبرور[34]، وهو تكريس للمعنى الديني للجهاد، وتوجد أحاديث تفضّل الجهاد في الوالدين والبرّ بهما على القتال في ساحات الوغى[35]، وهو ترسيخ لمفهوم الجهاد الأخلاقي، لكنَّ الجامع بين المعنيين الديني والأخلاقي المتجسّمين في صورتي الحجّ وبرّ الوالدين هو إعلاء كلمة التوحيد[36]، فالحجّ توحيد صريح، لأنَّه يتضمّن التصريح بتلبية دعوة الله دون سواه ونفي الشريك له، أمَّا برّ الوالدين في الآيات التي تتحدَّث عن الإحسان لهما، فهو يرتبط بالتوحيد أيضاً من ذلك الآية: «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً». (الأنعام 151)

ولئن تطوَّر مفهوم الجهاد حسب العصور والمذاهب والحقول المعرفيَّة المختلفة في الفكر الإسلامي، فإنَّ غايتنا إلقاء الأضواء على هذا المفهوم في فكر روَّاد النهضة الإسلاميَّة.

مفهوم الجهاد عند روَّاد عصر النهضة

المفهوم المسكوت عنه

لئن لم يتطرَّق خير الدّين في كتابه «أقوم المسالك» مطلقاً للحديث عن الجهاد، فإنَّ الطهطاوي ذكره في كتابه «مناهج الألباب المصريَّة» مقابل السكوت عنه في كتابه «تخليص الإبريز»، والغريب حسب بعض الباحثين أنَّه خصَّص قرابة أربع صفحات من كتابه للحديث عن الخدعة، وأنَّ الحرب خدعة وعلى المجاهدين المسلمين سلوك سبيل السلامة والتخلّص من عدوّهم بالحيل والخداع. ولعلَّ السبب في ذلك اشتغاله بتهدئة الأجواء للأخذ من الغرب وعدم الاحتكاك به لمعرفة مدى قوّته عبر ترجمة عدّة كتب عسكريَّة، واشتغاله في الحرب المصريَّة واطلاعه على حال عساكر بلاده عن كثب. ومن عباراته: «وينبغي أن يخوّف الملك

34- روى البخاري عن عائشة قولها: يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ قال: لا، لكن أفضل الجهاد حجّ مبرور"، صحيح البخاري، 1/375، حديث رقم 1520.

35- روى البخاري عن عبد الله بن عمر: جاء رجل إلى النبي فاستأذنه في الجهاد، فقال: أحيّ والداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد"، المصدر نفسه، 2/273 حديث رقم 3004.

36- محمود محمَّد أحمد، تطوُّر مفهوم الجهاد، المرجع المذكور، ص 43.

العدوّ بما يمكنه فربَّما رجع، ويجتهد في قمع العدوّ بالحيلة والمكيدة فالحيلة أنفع وسيلة (...). قال الحكماء: الناس حازمان وعاجز فأحزم الحازمين من عرف الأمر قبل وقوعه فاحترس منه، والحازم بعده من إذا نزل به الأمر تلقّاه وعمل الحيلة حتى يخرج منه»، ويقول كذلك «ومدار فن الحرب الآن على تعليم الحركات العسكريَّة وحسن الرّأي والشجاعة وخيرها أوسطها قال (صلى الله عليه وسلم): «الحرب خدعة (...)، ولو أنَّ الشجاعة هي عماد الفضائل ومن فقدها لم تكتمل فيه فضيلة، إلا أنَّ الرّأي مقدّم عليها».[37]

ويبدو أنَّه بالتوازي مع هذه الظاهرة اتسعت دلالة مفهوم الجهاد في الفكر الإسلامي الحديث اتساعاً جديراً بالدرس.

الاتساع الدلالي لمفهوم الجهاد في الفكر الإسلامي الحديث

يبدو أنَّ مفهوم الجهاد لم يشهد تعدُّداً دلاليًّاً يضاهي ما شهده خلال العصر الحديث، لذلك يمكن أن نتوقف عند بعض وجوه هذا التعدد، ومنها:

1- المفهوم الديني للجهاد: الجهاد دفاع عن الدّين لا عن الأوطان

يقوم هذا المفهوم في الفكر الإسلامي الحديث على اعتبار الجهاد بمعنى الدفاع عن الدين، وقد يكون الرائد الأوَّل لهذا الاتجاه السيد أحمد خان الهندي (1817-1898م). وهو يعرض مفهوم الجهاد بعيداً عن مفاهيم الغدر والقسوة والعنف وسفك الدماء. ولكي تتمّ إعادة تفسير الجهاد وفق هذا المعنى، يقرأ أصحاب هذا الاتجاه مفاهيم «دار الإسلام» و«دار الحرب» و«الهجرة» الواردة في كتب الأحناف من جديد ويسقطوها على الهند في ضوء وضع المسلمين تحت حكم الإنجليز فيها.[38]

وهكذا فالجهاد في نظرهم عبارة عن «الحرب دفاعاً عن المعتقد، وهذا معنى كونه في سبيل الله، وحتى يكون هذا الجهاد شرعيًّاً يجب أن يكون موجَّهاً ضدّ دار الحرب، فقط شرط أن تتوفّر فيها عدّة شروط تحوّلها إلى دار كفر أو بالأصح دار تكفير واضطهاد، فدار الحرب وفقاً لهذا التفسير هي مجرَّد اسم تقني لبلد يحكمه حكم إسلامي والمسلمون فيه رعايا لحاكم غير مسلم، في مقابل دار الإسلام التي تدار بحكم الإسلام فحسب، فدار الحرب درجات ومراتب بحسب أوضاع المسلمين فيها، ولا تستدعي جميعها الجهاد

37- الطهطاوي، مناهج الألباب المصرية، تقديم حلمي التميم، دراسة مصطفى لبيب عبد الغني (د .م: المجلس الأعلى للثقافة، ط 2002، ص 410-407.

38- Malik, Hafeez, Political Profile of Sir Sayyid Ahmad Khan, A Documentary Record, (Islamabad, Pakistan: National Institute of Historical and Cultural Research, Quaid-I-Azam University Press), 1982. p. 322.

بالضرورة، ففي الحالة التي يجد المسلمون فيها حريَّة التديّن والمعتقد في بلد تحت حكم إسلامي يحمي لهم هذا الحق ويحترمه، فإنَّ ذلك البلد يعتبر بالنسبة إليهم دار أمان، وهم مستأمنون فيه.[39]

وعلى ذلك فإنَّ لهم العيش هناك، ويحرّم عليهم الجهاد (الذبّ الديني) فيه والتمرُّد على حاكمه.[40]

ويتمُّ التأكيد هنا دائماً أنَّ وضع المسلمين في الهند أقرب إلى كونهم مستأمنين في دار الأمان[41]، فيجب عليهم الولاء التام للإنجليز وعدم عصيان أمرهم، لأنَّ حريتهم الدينيَّة مضمونة تحت حكمهم، ويحرم عليهم في أيّ حال من الأحوال وتحت أيَّة ظروف القيام بالجهاد ضدّ الإنجليز. يقول شارحاً وضع المسلمين في الهند تحت حكم الإنجليز: من المعروف جيداً أنَّ الحكومة لم تقم حتى الآن بوضع أيَّة عقبة أمام حريَّة المعتقد واحترام الطقوس الدينيَّة لرعاياها المتديّنين، وأنَّها لن تفعل ذلك في المستقبل أيضاً، لأنَّ المملكة في إعلان لها قد تكرَّمت بإعطاء ضمانة لهذا الغرض، ومع ذلك لنفترض جدلاً أنَّه تمَّ انتهاك هذا ... حتى في تلك الظروف لن يكون مبرراً للمسلمين التمرُّد على الحكومة، كلّ ما يمكنهم القيام به في مثل هذه الظروف هو أن يغتربوا بأنفسهم».[42]

هكذا جرت كلّ المحاولات من أجل تقييد ممارسة الجهاد المرادف عندهم للحرب الدينيَّة، كي لا تتحقق شروط حدوثه فعليًّا في أيَّة ناحية من النواحي، ومن جانب آخر طرح مفهوم الهجرة بديلاً أفضل وأمثل له، كما تمَّ تحوير معنى دار الأمان الذي نسب في الفقه وخاصة عند الأحناف إلى بلد يسكنه غير المسلمين حتى يتسنّى لهم تطبيقه على وضع المسلمين في الهند.

2- المفهوم الاجتماعي للجهاد: الجهاد باعتباره إصلاحاً (جهاد الوقت)

يقارب أصحاب هذا الاتجاه وعلى رأسهم محمَّد عبده مفهوم الجهاد من منظور اجتماعي، ذلك أنَّ همّهم الكبير هو إصلاح المجتمع وإخراجه من التخلف والنهوض به، لذلك يجدون في الجهاد وسيلة للوصول إلى مقصودهم. وهدفهم من استخدام مفردة الجهاد في هذا المعنى هو تحريك همم كلّ أفراد المجتمع وإشراكهم في عمليَّة الإصلاح، إذ في رأيهم لا نجاح لإصلاح المجتمع إلَّا بالعمل الجماعي.[43]

39- المرجع نفسه، ص 321.

40- المرجع نفسه، ص 322-323.

41- المرجع نفسه، ص 321-322.

42- Malik, Political, pp. 309-310.

43- محمَّد عبده، الأعمال الكاملة، تحقيق محمَّد عمارة، بيروت، دار الشروق، ط5، 1414هـ / 1993 م، ج 3، ص 56.

يعيب هؤلاء على طالب الإصلاح الذي يرى مشاكل المجتمع لكنَّه «لا يرضى لنفسه أن يخطو خطوة واحدة في سبيل تحصيله، بل يجب أن يأتيه الإصلاح ساعياً إليه ويحدق نظره نحو الحكومة يطلب منها أن تخلق خلقاً جديداً».[44] ويتساءلون: «أيظنون أنَّه يمكن لهم نوال الشرف أو حفظ الناموس إلَّا إذا جاهدوا في سبيل الإصلاح بأموالهم وأنفسهم»؟[45]

لكن كيف يقوم الناس بهذا الجهاد؟ وما هو عتاده؟ وهل هو شبيه بجهاد الفقهاء مثلاً والعتاد الذي اقترحوا له؟

يجيبون بأنَّ «من سنّة من قبلنا ومن معنا في عصرنا أن يسعى أفراد الأمَّة ونبلاؤها في جمع الكلمة وبذل الدينار والدّرهم وتعاضد الأفكار والأعمال على تحصيل ما يطلبون بأسبابه ووسائله الحقيقة وبدون توانٍ في العمل ولا فتور في الهمم».[46]

إذاً الجهاد هنا مرتبط بتبادل الناس مواهبهم وقدراتهم الفرديَّة وإمكاناتهم الماديَّة والمعنويَّة. وبما أنَّ المعوَّل في هذا الجهاد الإصلاحي على آحاد المجتمع وليس على الحكومة، لذا يكون من الطّبيعي أن يبتعد فيه المنظّرون عن السياسة، ولكنّ عدم الالتفات إلى الحكومة والمراهنة على أفراد الأمَّة يتطلّب تحضيرهم لهذه المهمَّة، ولهذا السبب يساوي الجهاد الإصلاحي عند هؤلاء إصلاح التربية والتعليم. ومن هذا المنطلق تأتي مخاطبة الأغنياء وحثّهم على بذل أموالهم «في سبيل افتتاح المدارس والمكاتب واتّساع دوائر التعليم حتى تعمّ التربية وتثبت في البلاد جراثيم العقل والإدراك وتنمو روح الحق والصلاح وتتهذّب النفوس».[47]

ولكن في الوقت نفسه يعرف هؤلاء جيداً أنَّ طريق التعليم والتربية بعيدة، ولا بدَّ فيها من العمل الدّؤوب ولو عدّة قرون.

ويستخدم في هذا الصدد مفهوم الجهاد الأكبر، فقد اعتبر الإصلاحيون ومنهم عبده ورضا أنَّ الجهاد في القرآن والسنَّة يتجاوز معناه الجهاد القتالي إلى نوع آخر ذكر في الفكر الإسلامي القديم هو الجهاد الأكبر[48]، ولا يقصد بهذا النوع معناه الصوفي، ذلك أنَّ من أهمّ مرتكزاته «ما يبتلى به المؤمن من مدافعة الباطل ونصرة الحق».[49] وهكذا يخرج الجهاد الأكبر عن المعنى الفردي الذاتي لدى المتصوّفة، وهو يقوم

44- المصدر نفسه، ص 56.
45- المصدر نفسه، ص 51.
46- المصدر نفسه، ص 50.
47- المصدر نفسه، 3/50.
48- المصدر نفسه، 5/102-103.
49- المصدر نفسه، 5/102-103.

على مجاهدة النفس، لينفتح على معنى موضوعي خارج إطار الذّات موصول بالمجتمع. وهذا المعنى قد يكون في نظرهم أفضل من جهاد العدو، وربَّما يفضّل بعضهم جهاد النفس على جهاد الأعداء في الحرب، فإنَّ الإنسان إذا أراد أن يبث فكرة صالحة في الناس أو يدعوهم إلى خير من إقامة سنَّة أو مقاومة بدعة أو النهوض لمصلحة، فإنَّه يجد أمامه من الناس من يقاومه ويؤذيه إيذاء قلما يصبر عليه أحد وناهيك بالتصدي لإصلاح عقائد العامة وعاداتهم، وما الخاصَّة في ضلالهم إلا أصعب مراساً من العامَّة».[50]

اتساع مفهوم الجهاد: رشيد رضا نموذجاً

ينطلق رشيد رضا من المفهوم اللغوي للجهاد ليصل إلى أنَّ أبعاده الدّلاليَّة منفتحة على أكثر من معنى، فالجهاد لغة في رأيه «مشاركة من الجهد وهو الطاقة والمشقة».[51] وبناء على هذا يصنّف الجهاد إلى حسّي ومعنوي وقولي وفعلي.[52] واتَّسع هكذا مفهوم الجهاد عنده ليشمل كلَّ جهد وعناء يبذل في سبيل الغير أو الأوطان، على غرار «الجهاد في سبيل الزوجة والولد والأمَّة والوطن».[53]

وقد سعى رشيد رضا إلى تأصيل فكرة التسامح في الإسلام اعتماداً على تأويل الآية: «لا إكراه في الدّين»، فهي في نظره «قاعدة كبرى من قواعد دين الإسلام وركن عظيم من أركان سياسته».[54]

وينجرّ عن هذه القاعدة أمران أساسيَّان: أوَّلهما عدم جواز إكراه أحد على الدّخول في الإسلام، وثانيهما عدم السماح لأحد أن يكره أحداً من أهله على الخروج منه.

ويعتمد رضا على آية لا إكراه في الدّين باعتبارها قاعدة دينيَّة وركيزة سياسيَّة للدّين الإسلامي، ويعضدها بآية أخرى تأمر بالدّعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة وبمجادلة المخالفين بالتي هي أحسن أي بالبرهان. وبناء على هذا يستنتج أنَّ «الجهاد من الدّين بهذا الاعتبار، أي إنَّه ليس من جوهره ومقاصده، وإنَّما هو سياج له وجُنّة، فهو أمر سياسي لازم له للضرورة».[55]

وما يلفت النظر في هذا القول رأيان: أوَّلهما اعتبار الجهاد مسألة فرعيَّة لا جوهريَّة في الدين، وهو إذن سلوك دفاعي اقتضته الضرورة، أمَّا الرأي الثاني المترتّب على هذا فهو اعتبار الجهاد أمراً سياسيَّاً، وهذا من شأنه أن يسقط أطروحات الذين يستميتون في اعتبار الجهاد أمراً دينيَّاً مقدَّساً. ولا يبدو أنَّ رضا

50- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
51- رشيد رضا، تفسير المنار، 10/473.
52- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
53- المصدر نفسه، 1/187.
54- المصدر نفسه، 3/33.
55- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

يواجه الحركات الإسلاميَّة التي لم يكن لها في عهده نشاط يضاهي ما يحدث اليوم، بل يتصدَّى لفريق من المستشرقين اتَّهموا الإسلام بأنَّه توسَّع عن طريق السيف. وهذا ما جعل رضا يعلن أنَّه «لا التفات لما يهذي به العوام ومعلّموهم الطّغام، إذ يزعمون أنَّ الدّين قام بالسيف وأنَّ الجهاد مطلوب لذاته، فالقرآن في جملته وتفصيله حجَّة عليهم».[56]

3- المفهوم الأخلاقي للجهاد: جهاد النفس أو الجهاد الأكبر

يمكن أن نعتبر جهاد النفس من أهمّ ركائز المفهوم الأخلاقي للجهاد، وأهمّ حجّة وظّفتها المذاهب الإسلاميَّة لإسباغ المشروعيَّة الدينيَّة على هذا المفهوم حديث نبوي مرويّ عند أهل السنّة والشيعة بسندين مختلفين لكن بمضمون واحد تقريباً، وهو حديث ينصّ على أنَّ الجهاد الأصغر هو القتال والجهاد الأكبر هو جهاد النفس.[57]

وتتجلّى صلة جهاد النفس بالأخلاق من خلال مقاومة صفات الشر فيها وحملها على الاتصاف بصفات الخير وعلى الالتزام بالأعمال الصالحة. لهذا اعتبر الشوكاني أنَّ ممَّا يدخل في الجهاد الأعمال الصالحة التي أمر الله بها «فإنَّها من جملة ما يجاهد المرء نفسه حتى تقوم به ويؤيّده كما أمر الله سبحانه».[58]

والملاحظ أنَّ جهاد النفس أو الجهاد الأكبر مختلف في مرتبته بين فقهاء الشيعة والفقهاء السنّيّين، فبعض كتّاب المذهب الشيعي يضعون الجهاد الأكبر وجهاد النفوس في المرتبة الأولى، أمَّا المرتبة الثانية فهي لجهاد الأجساد أو الجهاد الأصغر، لكنَّ الشائع والغالب عند أهل السنَّة أن يكون جهاد النفس الشكل الثاني من أشكال الجهاد بعد جهاد الأجساد.[59]

واعتبر رشيد رضا بناء على موقف التيَّار الأوَّل أنَّ جهاد النفس هو الأصل وجهاد العدو الخارجي فرع عليه. ويستند تعضيداً لهذا الاستنتاج بحديث الرسول المروي عن فضالة بن عبيد الله فقد قال: «ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هاجر الخطايا والذنوب».[60] وبناء على هذا اعتبر جهاد النفس مقدَّماً

56- المصدر نفسه، 3/33.

57- نذكر من ذلك الحديث الشيعي الذي يفيد أنَّ أمير المؤمنين عليّاً قال: "إنَّ رسول الله بعث سريّة فلمّا رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر، قيل: يا رسول الله: وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس"، محمَّد بن حسن الحر العاملي، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، باب وجوبه، رقم الحديث 20216، ط2، قم، مؤسّسة آل البيت، 1414هـ، الجزء 15، ص 163.

58- الشوكاني، فتح القدير، 1/1396.

59- انظر: Tyan, Djihâd, EI2, 2/551-552

60- رشيد رضا، تفسير المنار، 6/306.

على جهاد العدوّ في الخارج وأصلاً له، فإنَّه ما لم يجاهد نفسه أوَّلاً لتتبع أوامر الله وتنتهي عن نواهيه، فإنَّه لا يستطيع مجاهدة عدّوه في الخارج، فمقاومة العدو الدّاخلي تكون قبل مقاومة العدوّ الخارجي.

لكن هل يقتصر المفهوم الأخلاقي للجهاد على مستواه الفردي؟

يعتمد رشيد رضا في هذا الشأن على إعادة تأويل عبارة «في سبيل الله»، في الآية: «يا أيُّها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيل الله لعلكم تفلحون»، معتبراً أنَّها تعني طريق الحق والخير والفضيلة، «فكلّ جهد يحمله الإنسان في الدفاع عن الحق والخير والفضيلة أو تقريرها وحمل الناس عليها فهو جهاد في سبيل الله».[61] وهكذا فإنَّ صلة مفهوم الجهاد بالأخلاق تقوم أساساً على اعتبار الغايتين الجوهريَّتين من الجهاد: دينيَّة وأخلاقيَّة؛ فغاية الجهاد الدينيَّة تتمثّل في إقامة سنن الله في خلقه، أمَّا غايته الأخلاقيَّة فتكمن في ترسيخ كلّ ما يرضي الله من عباده من الحق والخير والفضيلة.[62]

4- المفهوم السياسي للجهاد: جهاد الكلمة نموذجاً

نقصد بالمفهوم السياسي للجهاد ما اصطلح عليه قديماً بجهاد الكلمة، أي الجرأة على قول الحق لرجل السلطة عند جوره، ويندرج هذا المفهوم ضمن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد أصّل العلماء القدامى هذا المفهوم اعتماداً على حجج دينيَّة منها خاصَّة الأحاديث النبويَّة، على غرار ما رواه أحمد والطبراني في قوله: «أحبّ الجهاد إلى الله كلمة حق تقال لإمام جائر».[63]

ويتّسع جهاد الكلمة للكلمة البشريَّة والكلمة المقدَّسة، فبالقرآن يمكن للمؤمن أن يجاهد المعارضين للدّين. وهذا الرأي يقوم على تأويل الآية: «ولو شئنا لبعثنا في كلّ قرية نذيراً فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً»، (الفرقان 51-52) فهذه السورة المكيَّة أمر فيها الرسول بجهاد المشركين بالحجَّة والبيان القرآني. وبناء على هذا استنتج أنَّ من أفضل الجهاد قول الحق مع شدَّة المعارض مثل أن نتكلّم به عند من تخاف سطوته.

ولئن اتسع مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الخطاب الصوفي مركّزاً على أنَّ أفضل الجهاد بغض الفاسقين والمنافقين من خلال أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر[64]، فإنَّ هذا المفهوم تماهى في بعض ما أنتجه الفكر الإسلامي الحديث مع معنى مقاومة استبداد الحكّام الظّلمة.

61- المصدر نفسه، 6/306.

62- انظر: تفسير رشيد رضا للآية 78 من سورة الحج، تفسير المنار، 6/223.

63- يروى هذا الحديث بصيغ أخرى متقاربة ومتشابهة على غرار ما رواه الترمذي عن الرسول: "أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر"، انظر محمَّد بن عبد الله الشيباني، تأمّلات في فقه الجهاد. http://islamselect.net/mat540

64- انظر تفسير ابن عجيبة للآية "ولتكن منكم أمَّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر"، تفسيره www.alafsir.com.

فقد اعتبر رشيد رضا أنَّه جرت سُنّة الأنبياء والمرسلين والسلف الصالح على الدَّعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كان محفوفاً بالمكاره والمخاوف. ويستند دعماً لهذا الموقف بحديث جابر أنَّ النبي قال: سيّد الشهداء حمزة بن عبد المطّلب ثمَّ رجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتل على ذلك...، وأيّد هذا الحديث بحديث آخر هو: أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر.

ويبدو رشيد رضا محرّضاً على هذا السلوك السياسي دافعاً للجرأة في إبداء الموقف السياسي ناقداً دعاة الاحتراز والتوقّي على النفس مؤصّلاً ذلك بأنَّه «قد ورد من تصدّي علماء السلف لنصيحة الملوك والأمراء الظالمين وإيذاء هؤلاء لهم وسفكهم دماء بعضهم ما يردّ شرط أولئك المشترطين للأمن عليهم ويضرب به وجوههم. ولا ينافي هذا كون التوقّي من التهلكة واجباً لذاته في هذه الحالة كما يجب في حال الجهاد بالسيف، فلا نترك الدعوة إلى الخير ولا الجهاد دونه خوفاً على أنفسنا وحرصاً على الحياة الدنيا ولا نفرّط بأنفسنا في أثناء دعوتنا وجهادنا».[65]

وقد قدّم رشيد رضا تحليلاً تاريخيًّاً نقديًّاً لأسباب غياب ظاهرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع الإسلامي في الماضي وفي عصره. فهذه الظاهرة متأصلة في الأمَّة الإسلاميَّة في نظره استناداً إلى النصّ القرآني الذي يقرّ بأفضليَّة الأمَّة وأنّها خير أمّة أخرجت للناس، لكن ما غيّب فيها هذه الخصلة وهذا السلوك الإيجابي هو استبداد الحكّام بدءاً من حكّام بني أميَّة. وكان أوَّل أمير منهم يلجأ جهراً إلى هذه السياسة عبد الملك بن مروان، إذ قال على المنبر: «من قال لي اتّقِ الله ضربت عنقه»[66]، وبناء على هذا سنّت في الأمّة - وفق رشيد رضا - سنّة الاستبداد، فما زال يعظم ويتفاقم حتى سلب الأمَّة أفضل مزاياها في دينها ودنياها بعد الإيمان.

الخاتمة

لقد سعى عدد من روَّاد عصر النهضة الإسلاميَّة إلى تلميع صورة الإسلام الذي كان يُتَّهم في زمنهم بأنَّه دين السيف، لذلك كان الحلّ في نظرهم عدم الاقتصار على الدلالة الرئيسيَّة لمفهوم الجهاد في كتب الفقه وهي مقاتلة الكفّار. ولجؤوا من أجل ذلك إلى تأويلات جديدة للنصوص القرآنيَّة والأحاديث، أو إلى استخدام مواقف لم يكن لها حظ من الرواج والانتشار، وأكَّدوا على فكرة التسامح في الإسلام التي تنهض على آيتين أساسيتين هما: «لا إكراه في الدين»، و«ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن».

65- رشيد رضا، تفسير المنار، 16/125.

66- المصدر نفسه، 4/50.

وقد استنتج رشيد رضا على أساس هذه النصوص أنَّ الجهاد من الدين بهذا الاعتبار، أي أنَّه ليس من جوهره. ومن أهمّ ما خلصنا إليه من بحثنا فضلاً عن هذا أنَّ اتساع دلالة مفهوم الجهاد عند روَّاد عصر النهضة ينسجم مع اتساع الدلالة القرآنيَّة لمفهوم الجهاد.

والمحصلة من دراستنا أنَّه لا أحد يمكنه ادعاء امتلاك الحقيقة كاملة في مجال البحث في مفهوم الجهاد، خاصَّة أنَّه لم يكن ثابتاً على الدوام، بل كان عرضة للتأويلات والتوظيفات المختلفة عبر الزمان والمكان والمذاهب. لقد كان أشبه ما يكون بطعام يغلي في قدر ساخن يتغذى به الجميع، لكنَّ مذاقه ليس واحداً لدى كلّ فرد وكلّ جماعة مهما كان تجانسها.

قائمة المصادر والمراجع

- أحمد محمود محمَّد، تطوُّر مفهوم الجهاد دراسة في الفكر الإسلامي المعاصر، ط1، بيروت، الشبكة العربيَّة للأبحاث والنشر.

- البخاري، صحيح البخاري، موسوعة السنّة، الكتب الستة وشروحها، ط2، تونس/استانبول، 1992.

- البستاني (بطرس)، محيط المحيط، ، بيروت، مكتبة لبنان، 1977.

- البنّا حسن، مجموعة رسائل الشهيد حسن البنّا، القاهرة، المكتبة التوفيقيَّة (د. ت.).

- التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، استانبول، 1984.

- الحر العاملي محمَّد بن حسن، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ط2، قم، مؤسسة آل البيت، 1414هت.

- ابن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تحقيق خالد العطار، بيروت، دار الفكر، 1998.

- الرازي، مفاتيح الغيب، ط1، بيروت، دار الكتب العلميَّة، 1990.

- الرازي، مختار الصحاح، ط1، بيروت، دار الكتاب العربي، 1979.

-رضا رشيد، تفسير المنار، ط3، مصر، مطبعة المنار 1330 هـ. رضا رشيد، تفسير المنار، ط3، مصر، مطبعة المنار 1330 هـ.

- الزاوي الطاهر أحمد، ترتيب القاموس المحيط، ط3، تونس - ليبيا، الدار العربيَّة للكتاب، 1980.

- الزمخشري، أساس البلاغة، ط1، بيروت، دار صادر، 2009.

- شحرور، تجفيف منابع الإرهاب، ط1، بيروت، مؤسّسة الدراسات الفكريَّة المعاصرة، دمشق، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، 2008.

- الشوكاني، فتح القدير، تحقيق عبد الرحمن عميرة، ط2، المنصورة/مصر، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 1997.

- الشيباني محمَّد بن عبد الله، تأمّلات في فقه الجهاد. http://islamselect.net/mat540

- الطبري، تفسيره (جامع البيان في تأويل آي القرآن)، ط1، بيروت، دار الكتب العلميَّة، 1992.

-الطهطاوي، مناهج الألباب المصريَّة، تقديم حلمي التميم، دراسة مصطفى لبيب عبد الغني، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2002.

- ابن عاشور، التحرير والتنوير، تفسير التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسيَّة للنشر، 1984.

- عبده محمَّد، الأعمال الكاملة، تحقيق محمَّد عمارة، بيروت، دار الشروق، ط5، 1414 هـ/ 1993م.

- ابن عجيبة، تفسيره، www.alafsir.com

- ابن عربي، تفسير ابن عربي، بيروت، دار صادر، 2002.

- الفراهيدي الخليل بن أحمد، كتاب العين مرتباً على حروف المعجم، ترتيب وتحقيق عبد الحميد الهنداوي، بيروت، منشورات محمد علي بيضون ودار الكتب العلميَّة، 2003.

ـ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد عبد العليم البردواني، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1964.

ـ النووي، رياض الصالحين، ط 17، بيروت، مؤسّسة الرسالة، 1409 هـ/1989م.

- Malik, Hafeez, Political Profile of Sir Sayyid Ahmad Khan, A Documentary Record (Islamabad, Pakistan: National Institute of Historical and Cultural Research, Quaid-I-Azam University Press), 1982.

- Tyan, Djihâd, EI2, Tome 2.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2018

جميع الحقوق محفوظة © 2018